

سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري

(٦٥٨ - ٦٧٦هـ)

أ/ صابر سعيد صابر

كان من أفضل فترات القوة التي مرت بها مصر الإسلامية تلك الفترة التي حكم فيها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري، الذي قال فيه المؤرخ ابن العماد الحنبلي نقلًا عن صاحب العبر: «هو السلطان الكبير ركن الدين أبو الفتوح بيبرس التركي البندقداري ثم الصالحي، صاحب مصر والشام. وُلد في حدود ٦٢٠هـ. واشتراه الأمير علاء الدين البندقداري الصالحي، فقبض الملك الصالح علي البندقداري وأخذ ركن الدين منه، فكان من جملة مماليكه، ثم طلع ركن الدين شجاعًا فارسًا مقدامًا، إلى أن بهر أمره، وبعد صيته. وشهد وقعة المنصورة بدمياط، ثم كان أميرًا في الدولة المعزية، وتنقلت به الأحوال، وصار من أعيان البحرية. وولي السلطنة في سابع عشر ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ، وكان ملكًا سرّياً، غازياً، مجاهدًا، مؤيدًا، عظيم الهبة، خليفًا للملك، يُضرب بشجاعته المثل. له أيام بيض في الإسلام، وفتوحات مشهورة، ومواقف مشهودة».

كيف تولى الظاهر بيبرس السلطنة؟

بعد انتصار الجيش المملوكي على المغول في معركة عين جالوت في رمضان ٦٥٨هـ استأنف قطز رحلة العودة إلى القاهرة، بعد ترتيب أوضاع بلاد الشام. وفي الوقت نفسه زال الخطر المغولي الذي أجبر المماليك جميعًا على الاتحاد، فتجددت النزاعات بين قطز ومماليكه المعزية من جهة، وبين المماليك البحرية بقيادة الأمير بيبرس البندقداري

من جهة أخرى. وكان الأمير بيبرس يتحين الفرصة للتخلص من قطز لسببين:
الأول: أنه أراد الانتقام لمقتل الأمير أقطاي الذي شارك قطز في قتله.
الثاني: أنه استاء من تراجع قطز عن وعده بمنحه نيابة حلب إذا انتصر على المغول.
وهكذا تجاهل السلطان قطز مكانة الأمير بيبرس التي ارتفعت بعد عين جالوت، فصمّم بيبرس على

الإسلام بلاءً حسناً، فحارب الصليبيين وردَّ هجمات المغول وفتح القلاعَ ودك الحصون، وأنشأ المدارس والمساجد وأقام نهضة حضارية في مصر والشام، فاستطاع بذلك أن يكون هو المؤسس لدولة المماليك البحرية. وهكذا قضى السلطان بيبرس حكمه في حركة دائبة بين مصر والشام يصلح ويجاهد ويثبت أركان دولته، حتى قال فيه أحد الشعراء:

يوماً بمصر ويوماً بالحجاز وبالشـ

آم يوماً ويوماً في قرى حلب
وفي سبيل تنفيذ سياسته الواسعة النطاق البعيدة الأهداف لجأ بيبرس إلى عدة إجراءات سياسية تدل على ذكائه وفطنته؛ فهو يحالف مغول القفجاق ليتخذ منهم ستاراً ضد مغول فارس، ويحالف الدولة البيزنطية ليجعل منها عضداً له في سياسته ضد الصليبيين بالشام، ويحبي الخلافة العباسية في مصر لتكون دعامة له ولحكم المماليك في مصر والشام.

الإنجازات العسكرية:

كان أول إنجاز عسكري قام به الظاهر بيبرس هو حفظ ثغور الشام من هجمات المغول، فإن هولاكو خان قائد التتار لما بلغه ما جرى على جيشه من المسلمين بعين جالوت أرسل جماعة من جيشه ليستعيدوا الشام من أيدي المسلمين، قال ابن كثير: «فحيل بينهم وبين ما يشتهون فرجعوا إليه خائبين خاسرين، وذلك أنه نهض إليهم الهزبر الكاسر والسيف الباتر الملك الظاهر، فقدم دمشق وأرسل العساكر في كل وجه لحفظ الثغور والمعاقل بالأسلحة، فلم يقدر التتار على الدنو إليه، ووجدوا الدولة قد تغيرت، والسواعد قد شمرت، وعناية الله بالشام وأهله قد حصلت، ورحمته بهم قد نزلت، فعند ذلك نكصت شياطينهم على أعقابهم، وكروا راجعين القهقري، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات» اهـ.

ثم خرج بيبرس لغزو أكبر معاقل الصليبيين في الشام وهو إمارة أنطاكية الواقعة في أقصى الشمال من بلاد الشام، وهي ثاني الإمارات التي أسسها الصليبيون بالشام بعد الرها سنة ٤٩١ هـ وقتلوا من

قتله، فدبر مؤامرة مع أمراء المماليك البحرية لقتله في أول فرصة مناسبة، فخرج قطز في رحلة صيد، فلما فرغ من صيده وكان بعيداً عن معسكره تقدم بيبرس فتظاهر بتقبيل يد المظفر قطز فأخذ يده ليقبلها فأمسكها، وحمل عليه الأمراء بالسيوف فضربوه بها، وألقوه عن فرسه ورشقوه بالنشاب حتى قتلوه رحمه الله، ثم كروا راجعين إلى المخيم وبأيديهم السيوف مصلته، فأخبروا من هناك بالخبر، فقال بعضهم: من قتله؟ فقالوا: ركن الدين بيبرس، فقالوا أنت قتلته؟ فقال: نعم، فقالوا: أنت الملك إذن.

كان مقتله - رحمه الله تعالى - في يوم السبت، الخامس عشر من ذي القعدة، سنة ثمان وخمسين وست مئة - وقيل في سابع عشر من الشهر. وكانت القاهرة قد زينت لقدم السلطان المظفر قطز والناس تغمرهم الفرحة بأول انتصار حقيقي على وحشية المغول منذ خروجهم من أواسط آسيا، فلما اقترب موكب بيبرس لم يشعروا إلا والمنادي يقول: «معشر الناس، ادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدنيا والدين».

دخل بيبرس قلعة الجبل مقر حكم سلاطين المماليك فجلس على سرير المملكة، ودقت البشائر وضربت الطبول والبوقات.. وكان يوماً مشهوداً، فأشار عليه الوزير زين الدين بن الزبير - وكان منشأً بليغاً - بأن يغير لقب (القاهر) وقال: ما لقب به أحد فأفلح؛ لقب به القاهر بن المعتضد فخلع، ولقب به الملك القاهر ابن صاحب الموصل فسم. فأبطل السلطان هذا اللقب وتلقب بالملك الظاهر.

قال ابن كثير: «فحكم وعدل وقطع ووصل وولى وعزل، وكان شهماً شجاعاً أقامه الله للناس لشدة احتياجهم إليه في هذا الوقت الشديد والأمر العسير».

تعليق:

ومهما يكن من دافع لدى بيبرس لقتل السلطان المظفر سيف الدين قطز فهذا ليس مبرراً للإقدام على هذا الفعل الشنيع المنطوي على الغدر بهذا السلطان الذي حقق الله على يديه النصر للمسلمين. إلا أن الظاهر بيبرس لما تولى السلطنة أبلى في

إعادة الجمعة في الجامع الأزهر:

ومن أهم الإنجازات الدينية والحضارية التي قام بها الظاهر بيبرس أنه أعاد الخطبة في الجامع الأزهر بعد انقطاعها منذ عهد السلطان صلاح الدين، فإن صلاح الدين (٥٦٧ - ٥٨٩هـ) لما أزال مُلك الفاطميين الشيعة قطعَ خطبة الجمعة من الجامع الأزهر، حيث قلدَ وظيفة القضاء لقاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس، فعمل بمقتضى مذهبه، وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة في بلد واحد كما هو مذهب الإمام الشافعي، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر وأقر الخطبة بالجامع الحاكمي من أجل أنه أوسع، ولأن الجامع الأزهر كان هو مركز الدعوة الشيعية التي كان يقوم عليها الفاطميون بمصر، فلم يزل ارتباطه وثيقاً في أذهان الناس بالمذهب الشيعي، فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مئة عام، من حين تولى صلاح الدين يوسف بن أيوب، إلى أن أعيدت الخطبة فيه في أيام الملك الظاهر بيبرس.

وجد السلطان الظاهر بيبرس أن الداعي الذي من أجله قطعت الخطبة من الجامع الأزهر قد زال، وأن مذهب أهل السنة والجماعة قد عاد إلى قوته وذيوعه بمصر، فقرر عودة إقامة الجمعة فيه، فتمت عمارة الجامع الأزهر وترميم ما وهى من جدرانها، وإصلاح سقوفه وبلاطه وفرشه حتى عاد حرمها في وسط المدينة، وزادت عليه زيادات وتوسيعات، ورُتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الإمام الشافعي - رحمه الله - ورُتب محدث يُسمع الحديث النبوي والرقائق، ووُقفت على ذلك الأوقاف، ورتب به قراء لقراءة القرآن. ونودي في القاهرة بالخطبة في الجامع الأزهر، وكان أول خطيب للجامع الأزهر بعد عودة الخطبة فيه الفقيه زين الدين القليوبي، وكان ذلك في يوم الجمعة ١٨ من ربيع الأول سنة ٦٦٥هـ.

الإنجازات الحضارية الأخرى:

- قام بيبرس بإحياء الخلافة العباسية في رجب سنة ٦٥٩هـ بعد سقوطها في بغداد بثلاث سنوات ونصف، فنصّب أحد أبناء البيت العباسي خليفة

أهلها مئة ألف نفس، وكان أميرها بوهيمند السادس يحالف التتار ويناصرهم.

وكانت هذه الحملة مجرد حملة تآديبية ومحاولة لاختبار مدى قوة الصليبيين في أنطاكية، ثم تكررت المحاولة مرة أخرى وكانت هذه المرة أقوى وأبعد أثراً؛ مما أدى إلى استنجد حاكم أنطاكية بملك أرمينيا الصغرى وبالمغول، فأثر المسلمون الرجوع بما معهم من غنائم وأسرى.

وفي سنة ٦٦٣هـ بدأ بيبرس حربه الشاملة على معقل الصليبيين المنتشرة على سواحل الشام؛ مما حدا ببعض المؤرخين أن يلقبوه بصلاح الدين الثاني، ونجح في استرجاع قيسارية وأمر بهدمها حتى لا يتمكن الصليبيون من نزولها مرة أخرى.

وفي سنة ٦٦٤هـ أرسل حملة إلى أرمينيا الصغرى لمساعدتها للصليبيين، فأنزل بهم خسائر فادحة وقتل وأسر بعض أمرائها، وعادت قواته ظافرة غانمة. وفي سنة ٦٦٦هـ أفاد بيبرس من وقوع خلافات بين أمراء الصليبيين في سواحل الشام، فانتهاز الفرصة وقام بالهجوم على يافا وبعض مدنها، وأعقب ذلك بالزحف على أنطاكية فحاصرها ومنع أية إمدادات أن تصل إليها براً أو بحراً، ثم تمكن من دخولها وأسر جميع من بها من الصليبيين.

وبذلك سقطت الإمارة الثالثة من الإمارات التي أسسها الصليبيون في بلاد الشام، وكانت إمارة الرها قد سقطت سنة ٥٣٩هـ على يد المجاهد البطل الأتابك عماد الدين زنكي، وسقطت إمارة بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم سقطت بعد أنطاكية إمارة طرابلس آخر الإمارات الصليبية على يد السلطان المملوكي قلاوون الألفي سنة ٦٨٨هـ، فرحم الله هؤلاء المجاهدين وجزاهم خير الجزاء عما قدموه للإسلام والمسلمين.

وبالجملة فإن للظاهر بيبرس فتوحات وانتصارات على الصليبيين والتتار لا تحصى ولا يتسع المقام لسردها كلها عددها ابن كثير - رحمه الله - في البداية والنهاية.

سبع وستين، فغسل الكعبة بيده بماء الورد، وزار المدينة الشريفة.

- جدد بناء قبة الصخرة في القدس، بعد أن تداعت أركانها.

- بنى المدرسة الظاهرية بين القصرين، وعيّن فيها كبار الأساتذة كان من بينهم مدرّس الحنفية صاحب مجد الدين بن العديم، ومدرس الشافعية الشيخ تقي الدين بن رزين، وولى الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي مشيخة الحديث، والشيخ كمال الدين الحلبي مشيخة القراءة.

- أعاد بناء حصن الجزيرة بعد أن هدمه الملك المعز.

- بنى مسجده المعروف باسمه في ميدان الأزهر في القاهرة.

- بنى القناطر على جسر شبرمنت لتتلقى صدمة الماء الأولى.

- شيد قناطر السباع.

- بنى مشهد النصر في عين جالوت تخليدًا لذكرى الانتصار على المغول.

- جدد أسوار الإسكندرية.

- بنى مرقبًا في ثغر رشيد لكشف مراكب العدو.

- أعاد بناء القلاع التي هدمها المغول في بلاد الشام، مثل قلعة دمشق، قلعة الصلت، قلعة عجلون وغيرها.

وله غير ذلك إنجازات حضارية أخرى ذكرها المؤرخون في تاريخهم لسلطنته، فرحم الله السلطان الملك ركن الدين الظاهر بيبرس البندقداري، وعفا عنه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء (*)

ولقّبهُ بالمستنصر بالله بعد إثبات نسبه، ونقش اسمه على العُملة وخطب له على المنابر، فاكتسب بيبرس بذلك تأييد المسلمين وتقديرهم.

- جعل القضاة أربعة من كل مذهب قاضٍ، ولم يُعهد ذلك قبله في ملة الإسلام.

- أمر في أيامه بإراقة الخمر، وإبطال المفسدات وإسقاط المكوس المرتبة عليها، فأحسن في ذلك كل الإحسان.

- هو أول من أمر بصناعة الكسوة للكعبة المشرفة، وفي أيامه طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة وذلك في سنة ٦٧٥هـ، وكان يوماً مشهوداً، فكان أول من فعل ذلك بالديار المصرية.

- وكان له صدقات كثيرة؛ من ذلك كل سنة عشرة آلاف إردب قمح للفقراء والمساكين وأرباب الزوايا، وكان يخرج كل سنة جملة مستكثرة يستفك بها من حبسهم القاضي من المفلسين، وكان يرتب في أول رمضان مطابخ لأنواع الأطعمة برسم الفقراء والمساكين، ووقف وقفًا على تكفين أموات الغرباء، وأجرى على أهل الحرمين وطرق الحجاز ما كان انقطع في أيام غيره من الملوك، وله أنواع من المعروف وأوقاف البر.

المنشآت المعمارية:

- أكمل عمارة المسجد النبوي، وكان الخليفة المستعصم شرع فيه بعد أن احترق، فقتل قبل أن يتم، فجهز الظاهر في رمضان سنة ٦٦١هـ صناعاً وأخشاباً وآلات، وطيف بها بالديار المصرية فرحةً بها، وتعظيمًا لشأنها، ثم ساروا بها إلى المدينة الشريفة، وأرسل منبراً فنصب هنالك، وحج في سنة

(*) للاستزادة يرجع للمراجع الآتية:

- (١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي.
- (٢) البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير.
- (٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، لمحيي الدين بن عبد الظاهر.
- (٤) الشرق الإسلامي في العهدين المملوكي والعثماني، أ.د/ محمد عبد الحميد الرفاعي.
- (٥) تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، أ.د/ محمد سهيل طقوش.
- (٦) العصر المملوكي في مصر والشام، أ.د/ سعيد عبد الفتاح عاشور.